الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

# سيكولوجيّة النّفاق

## الوباء الخفيّ الذي يفتك بالأمّة من داخلها

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEF American International Education Federation

**د. خميس بن عبيد العجمي**

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

أتعلمون أنّ أغلبنا يرتدي أقنعة؟ أترغبون رؤية قناع يسقط بأقبح الصّور وأكثرها انتشاراً بيننا؟

في تمام الساعة الثالثة فجراً، رنين هاتف يكسر صمت الليل، وصوت مرتجف في الطرف الآخر: "أستاذ محمد، ابني في المستشفى، حالة حرجة، أرجوك ساعدني..."يغلق الرجل هاتفه وهو يتمتم بضيق: "في هذا الوقت؟ ماذا أفعل الآن؟" يقلّب في ذاكرته، ذلك الصوت لأحمد، الموظف البسيط الذي كان يقف معه في الصفّ الأوّل لصلاة الفجر كلّ يوم، الذي كان يستمع لمحاضراته عن الأخوّة في اللّه وضرورة التكافل بين المسلمين، وللحظة، يتذكّر كلماته التي خطب بها بالأمس: "المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره"..

لكنْ سرعان ما يتذكّر أنّ غداً لديه اجتماع هامّ مع المسؤولين ويجب أنْ يرتاح، ويتذكّر أنّ أحمد لا يملك نفوذاً يفيده به... فيقرّر العودة إلى فراشه الوثير...وفي ذهنه العذر الذي سيخدع به أحمد، ويبتسم لكونه قد ضمن فكرة خطبة الجمعة عن أهميّة التّراحم والتّكافل، وسيبذل جهده ليبكي الحاضرين من تأثرّه الظاهريّ.... وبعد ساعتين، يرنّ الهاتف مرة أخرى، ولكنْ هذه المرّة صوت مختلف، واثق، مُعرِّف بنفسه بألقابه الرسميّة: "أستاذ محمد، نحتاج لخدمة صغيرة، مسألة عاجلة..." ينهض فوراً، ويرتدي ملابسه بسرعة، وفي أقلّ من عشر دقائق يكون في سيّارته متّجهاً لتلبية النداء، فهذا الصوت لرجل نافذ، علاقته به قد تفتح له أبواباً كثيرة...في الطريق، وهو يسرع عبر شوارع المدينة الخالية، لا يتذكّر أحمد ولا ابنه في المستشفى، ولا يتذكّر أنّ المسافة ذاتها التي يقطعها الآن بحماس رفض أنْ يقطعها منذ ساعتين، وكلّ الذي يشغل تفكيره كيف سيستثمر هذه الخدمة لصالحه... الرجل ذاته، الليلة ذاتها، قراران مختلفان تماماً...

فمع الضّعيف قليل الحيلة: النوم أهمّ، الراحة أولى، "لم أسمع الهاتف"، ومع القويّ ذي النّفوذ : الخدمة شرف، التضحية واجب، "لبيّك في أيّ وقت".

هذا هو النفاق في أبسط صوره وأقبحها، قلب واحد، وجهان، معيار للأقوياء، ومعيار آخر للضعفاء، وسقوط مشين للأقنعة ...

قد يبدو هذا المشهد مألوفاً وعادياً، إلاّ أنّه في عمقه يكشف عن مرض خطير ينخر في جسد أمّتنا، مرض لا يصيب الأجساد إنّما القلوب، ولا يظهر على الجلد إنّما يتسرّب في أعماق النّفوس، إنّه النفاق، داء التّناقض، داء تطبيق نقيض ما تضمره النوايا، داء من يحمل في قلبه انتهاكات لمبادئ ينادي بها لسانه، داء من يحيا حياتين على طرفي نقيض، داء الدعوة للمبادئ علناً وانتهاكها خفاءً....

فالنّفاق مرض يصيب الرّوح والقلب، ينمو في صمت، ينتشر دون أعراض واضحة، إلى أنْ يستوطن الرّوح بأكملها، فيفسد دين الإنسان ودنياه، ويجعله ذاتاً خطيرة على مجتمعه وأمّته..والنفاق لم يكن ولن يكون يوماً ما مجرّد كذبة عابرة أو تصرّف منحرف سهل التقويم، بل هو منظومة نفسيّة وأخلاقيّة متكاملة من التناقضات والازدواجيّة، فهو الدّاء الذي يجعل الإنسان يعيش في أكثر من شخصيّة، يتقمّص أدواراً متضاربة وفقاً لما تمليه عليه المصلحة والظّروف، إلى أنْ يفقد هويّته الحقيقيّة ويصبح لاعب أقنعة بشخصيّة متشظّية تتغيّر وتتماهى مع المشهد الذي يعايشه...

وتكمن خطورة هذا المرض في كونه لا يقتصر في سوئه على صاحبه فحسب، بل يمتدّ ليصيب نسيج الأمة بأكمله، فالمنافق كالخليّة المسرطنة التي تتفشّى في الجسد، تبدو سليمة من الخارج، لكنّها تنشر سمومها في الداخل، وتضعف المناعة، وتهيئ البيئة لانتشار الفساد والضلال، لذلك جاء وصف القرآن الكريم للمنافق بأقسى الألفاظ وأوضح التحذيرات:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [ النساء: 145]



ARAB-PSF.COM

فالمنافق في جوهره إنسان مشتّت الهويّة، يعيش حالة من الانفصال المستمرّ بين ما يؤمن به حقاً وما يظهره للناس، وهذا الانفصال ليس مجرّد خداع بسيط، إنّما هو نمط حياة متكامل يتطلّب ذاكرة قويّة لتذكّر الأدوار المختلفة، وذكاء ماكراً لتبرير التناقضات، وقلباً قاسياً لتحمّل ثقل الكذب المستمرّ، فتجد من المنافقين من يظهر كأتقى الناس، ويطيل السجود في صلاته أمامهم، ويحرص على الصّف الأول، ويتحدّث بحماس عن الجهاد والتضحية، وإنْ خلا بمجلسه الخاص، سخر من هذه القيم، وتآمر ضدّ من كان يصلّي معهم منذ قليل، فهذه الازدواجيّة من شأنها أنْ تصنع شخصيّة هشّة، دائمة القلق من انكشاف الأمر، ممّا يدفعها لمزيد من التعقيد والتلفيق...

والنفاق آفة تتغذّى على نفعيّة البشر، أينما كانت المصلحة كان، فالنفعيّة دين المنافق، يحرّكه وفق مصلحته، ويغرس فيه مبادئ الربح والخسارة، والمصالح الشخصيّة، وقد تجلّت هذه الآفة في قصة ابنيْ آدم كأوّل مثال في التاريخ للنفاق والخداع والجريمة الناتجة عن الحسد والغضب، وفي التاريخ الإسلامي تكرّرت مراراً، فكان المنافقون "مؤمنين" في أوقات انتصار المسلمين، و"محايدين" في أوقات الشدة، و"متعاونين" مع العدوّ عندما تميل الكفّة ضدّ الإسلام، فهم ما قال فيهم اللّٰه تعالى:﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[ النساء: 143]

والنفاق يتشبّع من مشاعر الحقد والكراهية التي يحملها المنافق، تجاه مجتمعه وقيمه، فهو يستمتع برؤية الفتنة تنتشر والفساد يعمّ، لكون ذلك يعمل على إشباع غريزة الحقد في داخله، وفي ذلك يقول اللّٰه تعالى عنهم:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة البقرة: 11-12).



ARAB-PSF.COM

هذا ومن أخطر خصائص المنافق ازدواجيّة المعايير التي يطبّقها على نفسه وعلى الآخرين، فحلال عليه حرام على غيره، فهو يبرّر لنفسه ما يحرّمه على غيره، ويعذر نفسه بما لا يعذر به سواه، وهذه الازدواجيّة تتجلّى في مستويات مختلفة تظهر في الحكم على الأفعال، فعندما يخطئ المنافق، فهي "ظروف استثنائيّة" و"اجتهاد خاطئ" و"نيّة حسنة أُسيء فهمها"، أمّا عندما يخطئ غيره، فهو "انحراف" و"فساد" و"خيانة"، فهو يحاكم الآخرين بقانون القضاء، ويحاكم نفسه بقانون الرحمة، وفي تطبيق الأحكام، يطالب بتطبيق الشريعة على الضعفاء، ويبحث عن الرخص والمخارج عندما يتعلّق الأمر به أو بمن ينتمي إليهم، ويريد العدالة عمياء مع خصومه، وبصيرة مع أنصاره، وفي تقييم المواقف، يفسّر تصرّفات من يحبهم بأحسن النوايا، ويفسّر تصرّفات من يكرههم بأسوأها، وما يصدر عن حليفه حكمة ورؤية إستراتيجيّة، وما يصدر عن خصمه يصبح مؤامرة وخبثًا، وفي قياس النتائج فإنّ نجاحه"توفيق من اللّٰه وجهد شخصيّ"، وفشل غيره "عقاب إلهيّ وسوء تدبير"، وفشله "قدر لا مفرّ منه" و"مؤامرة من الخصوم"، ونجاح غيره "حظّ عابر" أو "ثمن باهظ سيدفعونه لاحقًا"...

فكم من منافق نبع نفاقه من الخوف والجبن، لكونه لا يملك الشجاعة للوقوف مع الحقّ عندما يكون الحقّ غريباً أو مكلفاً، فهو يخاف على منصبه، ماله، سمعته، راحته، أو حتّى حياته، فيختار ما يظنّه الطريق الآمن، طريق المداهنة والنفاق، طريق الكذب والتآمر، طريق يبدأ به ويصل لمجتمعه...

ففي حال انتشار عدوى النّفاق في جسد الأمّة، سيصبح الشكّ أصل التّعامل، وتتآكل الثّقة بين الأفراد، فالمنافقون هم "طابور خامس" يهدمون ثقة المجتمع من داخله، وينشرون الإشاعات، يثيرون الفتن، يخذلون المؤمنين في أوقات الشدة، فالمنافقون كالعملة المزيّفة في السّوق التي تفسد قيمة العملة الصحيحة، ويجعل النّاس يشكّون في كلّ ما يتداولونه، وعندما يعتاد الناس على وجود الخداع، يصبحون أكثر ريبة وشكاً حتّى مع الصادقين، وهذا ما يفكّك النسيج الاجتماعي ويضعف الروابط بين أفراد الأمة، فيصبح الشّكّ هو الأصل، والثّقة استثناء يحتاج إلى إثبات.

كما أنّ انتشار النّفاق يخلط الحقيقة بالوهم، ويفسد المفاهيم، ويشيع ضباب الفكر، ويشوّه الحقّ ويخلطه بالباطل فيصعب التفريق بينهما، ويبرّر الباطل بمصطلحات، ويلبسه بأثواب زائفة، فحديث المنافق عن المصلحة العامّة، هو في حقيقته لمصلحته الخاصّة، ودعوته إلى "الحكمة والتأني" هو رغبة بتعطيل العمل للحقّ، وتكلّمه عن "الوسطية والاعتدال" ما هو إلاّ تنازل عن الثوابت...

والنّفاق يقود لنشر ثقافة الخذلان، فالمنافقون يصلون لأعلى درجات الأذى لمجتمعاتهم بخذلانهم للأمة في أحرج اللحظات، ففي المعارك الحاسمة، عندما تحتاج الأمة لكلّ سواعدها، يتخلّف المنافقون أو يثبطون العزائم أو حتّى يتعاونون مع العدو، وفي مواقف الأمة المصيرية، والتحديات الحضارية، والدفاع عن القيم، وبناء النهضة، ومقاومة الفساد، سنجد المنافقين دوماً في الصفوف المعاكسة، يضعفون الهمم ويبثّون روح الهزيمة...

فضلاً عن قيام النّفاق بتشويه صورة الدين الإسلاميّ، فالمنافقون أخطر على صورة الإسلام من أعدائه المعلنين، لأنّ العدوّ الصريح واضح العداوة، أمّا المنافق فهو يتكلّم باسم الإسلام ويفعل ما يناقضه ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[ الفتح: 11]، فيشوّه صورة الدين في أعين الناس، الخين يرون من يدّعي الإسلام وهو يكذب ويخدع ويتآمر، فيظنّون أنّ هذا هو الإسلام، وهذا ما يجعل أعداء الإسلام يركّزون دائماً على إبراز المنافقين وتضخيم أفعالهم، لأنّهم يعلمون أنّ ضربة واحدة من منافق أعمق تاثيراً من ألف ضربة من عدوّ صريح...

وفي محاولات المجتمعات لعلاج النّفاق فقد وجب إدراك أنّ ذاك ليس بالأمر الهيّن، فهو أوّلاً يحتاج لعلاج فرديّ يبدأ بالصدق مع الذات، بوقوف الإنسان أمام مرآة ضميره عارياً من كلّ الأقنعة والمبررات، والكشف عن حجم التناقض الذي يحياه، وإعادة تعريف النجاح والفشل، لتصبح معاييرهما رضا اللّه أولاً، ثمّ السلام الداخلي الذي يأتي من التوافق بين المعتقد والسلوك، والتّوجّه نحو بناء شجاعة داخلية لدى المنافق تدريجياً ليستطيع قول الحقّ، ولو كلّفه ذلك شيئاً بسيطاً...

أمّا العلاج المجتمعيّ فهو يبدأ ببناء مناعة جماعيّة، أساسها تعزيز ثقافة الصدق والشّفافيّة، فالمجتمع الذي يقدّر الصدق ويحترم الصادقين ولو ارتكبوا الخطأ، هو مجتمع محصّن ضدّ النفاق، ومن ثمّ العمل على بناء ثقافة تقدّر من يقول "أخطأت" على من يقول "لم أخطئ" وهو مخطئ، وضرورة قيام المجتمع بتوجيه النقد البنّاء دون تشهير أو تدمير، والمحاسبة الرحيمة دون قسوة أو انتقام، مع غرس قيم ثابتة وراسخة ومرجعيّة واضحة تميّز النفاق بسهولة، مع بناء نظام مساءلة عادل وفعّال، لا يستثني أحداً مهما علا شأنه...

إلى جانب القيام بعلاج روحي أولى خطواته تقوية الصلة باللّٰه، وإحياء القلوب الميتة، من خلال العبادة الصادقة، والدعاء المستمر، وتلاوة القرآن بتدبر، والتزام الدعاء الذي علمنا إياه النبيّ ﷺ: "اللهمّ إنّي أعوذ بك من الشقاق والنفاق ومن سوء الأخلاق"، والتزام الصحبة الصالحة التي تعين على الصدق والاستقامة، والمحاسبة المستمرة للنفس ومراجعة النوايا والأعمال باستمرار..

وبعد، فإنّ النفاق ليس مجرّد خطأ أخلاقيّ، بل هو موقف وجوديّ من الحياة والحقّ والباطل، وخيار بين أنْ تكون إنساناً صادقاً متماسكاً، أو مجموعة من الأقنعة المتناقضة، واختيار بين السّلام الداخليّ الذي يأتي من التّوافق بين القلب واللسان، أو الصّراع النفسيّ المدمّر الذي يولّده التّناقض المستمرّ، وهو معركة الأمّة ضدّ النّفاق للحفاظ على الهويّة والقيم والمبادئ...

فليكن اختيارنا واضحاً، وليكن طريقنا مستقيماً، طريق صدق مع اللّٰه، وصدق مع النفس، وصدق مع الناس، عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[ المائدة: 119]

فالصدق في النهاية ليس موقفاً أخلاقياً وحسب، بل هو راحة نفسيّة، وسلام داخليّ، وطمأنينة لا تُقدّر بثمن..... فهذا هو الدرب، وهذا هو الاختيار....

فماذا نختار؟